وعائشة وميمونة وأم حبيبة إنما هى إحدى عشرة ركعة وثلاث عشرة ركعة. وأستحبُ أنْ يصلى العبد قبل كل صلاة أربعا وبعدها أربعا، إلاّ مالا صلاة قبلها ولا صلاة بعدها، ثم يزيد بعد ذلك ما قسم الله تعالى له، وأنْ يصلى الضحى ثماني ركعات ويواظب عليهن، إذا أنشط أطالهن، وإذا أفتر قصّرهن، فإنّ المداومة على العمل عملٌ ثان وهو من أفضل الأعمال وأحبّه إلى الله تعالى، وإلاّ اقتصر على أربع يديمهن. ولا أكره أن يصلى قبل المغرب ركعتين بعد غروب الشمس ، فقد قال أنس بن مالك كان اللُباب من أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم يصلّون ركعتين قبل المغرب، وكان أبيّ بن كعب وعبادة بن الصامت وأبو ذر وزيد بن ثابت وغيرهم من أكابر أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم يصلونها. وقال عبادة أو غيره كان المؤذن إذا أذنّ لصلاة المغرب ابتدر أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم السوارى يصلّون ركعتين. وقال أيضا بعضهم كنا نصلّى ركعتين قبل المغرب، وذاك داخل فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم بين كل أذانين صلاة لمن شاء، وقد كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يصليهما فعابهما الناس عليه، وقال مرة لم أر الناس يصلونهما فتركتهما، وقال إنْ صلاّهما الرجل فى بيته أو حيث لا يراه الناس فحسن ، وذلك أستحب.

الفصل السادس والثلاثون

فى شرح الكبائر التى تحبط الأعمال وتوبق العمال وتفصيل ذلك ومنازل أهلها فيها ومسئلة محاسبة الكفار

قال الله تعالى« إنْ تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيأتكم»، فاشترط لتكفير الصغائر من السيآت اجتناب الكبائر الموبقات. وقال صلى الله عليه وسلم الصوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفّر ما بينهن لمن اجتنب الكبائر، وفى لفظ آخر كفّارات لما بينهن إلاّ الكبائر، فاستثني من كفّارات الذنوب الكبائر، فاختلف العلماء من الصحابة والتابعين فى الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك، فكان ابن مسعود يقول هن أربع، وكان ابن عمر يقول الكبائر سبع، وقال عبد الله بن عمرو هن تسع، وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر أنّ الكبائر سبع يقول هى إلى سبعين أقرب منها إلى سبع، وقال مرة كل ما نهى الله تعالى عنه فهو من الكبائر، وقال هو وغيره كل ماتوَعّد الله تعالى عليه بالنار فهو من الكبائر، وقال بعض السلف كل ما أوجب الحدّ فى

الدنيا فهو كبيرة. والصغائر عندهم من اللّمَم وهو مالا حدّ فيه ومالم يُتهدد بالنار عليه، فقد روى هذا عن **أبى هريرة** وغيره . وقيل إنها مبهمة لا يُعرف حقيقة عددها، كإبهام ليلة القدر، وساعة يوم الجمعة، والصلاة الوسطى، ليكون الناس على خوف ورجاء فلا يقطعون بشىء ولا يسكنون إلى شىء، وقد قال **ابن مسعود** فيها قولاً حسناً من طريق الاستنباط وقد سئل عن الكبائر، فقال إقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله «**أنْ تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيأتكم**» ، فكل ما نهى اللّه تعالى عنه من أول السورة إلى هاهنا فهو من الكبائر، فانْشَبَه هذا استدلال قول **ابن عباس** فى استنباط ليلة القدر أنها ليلة سبع وعشرين، أنّه عدّ كَلِم سورة القدر حتى انتهى إلى قوله هى فكان سبعا وعشرين كلمة، واللّه أعلم بحقيقة هذين القولين، والذى عندى فى جملة ذلك مجتمعاً من المتفرق **سبع عشرة**، تفصيلها **أربعة** من أعمال القلوب وهن: الشرك باللّه تعالى، والإصرار على معصية اللّه تعالى، والقنوط من رحمة اللّه تعالى، والأمن من مكر اللّه تعالى، **وأربعة** فى اللسان وهن: شهادة الزور، وقذف المحصن ، وهو الحر البالغ المسلم ، واليمين الغَموُس ، وهى التى تُبطِل بها حقاً وتحق بها باطلاً، وقيل هى التى يُقطَع بها مال مسلم ظلما، وسميت غموسا لأنها تغمسه فى غضب اللّه تعالى. وقيل لأنها تغمس صاحبها فى النار، والسِحْر ، وهو ماكان من كلام أو فعل يقلب الأعيان أو يغيّر الإنسان ، وينقل المعانى عن موضوعات خَلْقها، والسَحَرة هم النفاثات فى العُقَد الذين أمر اللّه تعالى بالاستعاذة منهم . **وثلاثة** فى البطن ، وهى شرب الخمر ، والسُكر من الأشربة ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلَم . **واثنتان** فى الفرج ، وهما الزنا ، وأن يعمل عمل قوم لوط فى الأدبار . **واثنتان** فى اليدين ، وهما القتل والسرقة. **وواحدة** فى الرجلين وهى الفرار من الزحف. **وواحدة** فى جميع الجسد وهى عقوق الوالدين . وتفسير العقوق جملةً أنْ يقسما عليه فى حقٍ فلا يبرّ قسَمهما، وأن يسألاه فى حاجة فلا يعطيهما، وأن يأمناه فيخونهما، وأنْ يجوعا فيشبع ولا يطعمهما. وذكر **ابن منبه اليمانى** أصل البرّ بالوالدين فى التوراة أن تقى مالهما بمالك وتؤخر مالهما، وتطعمهما من مالك. وأصل العقوق أنْ تقى مالك بمالهما، وتوفر مالك وتأكل مالهما.

وفى حديث **أبى هريرة** الصلاة إلى الصلاة كفّارة، ورمضان إلى رمضان كفّارة، إلاّ من **ثلاثة**: إشراك باللّه، وترك السنّة، ونكث الصفقة أنْ تبايع الرجل ثم تخرج عليه بالسيف تقاتله. وقد روينا عن **أبى هريرة** قال قال **رسول اللّه صلى عليه وسلم** «من الكبائر

استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم بغير حق، ومن الكبائر السُبّتان بالسُبّة». وأما **عبادة بن الصامت وأبو سعيد الخدرى** وغيرهما من الصحابة فكانوا يقولون إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر، وهى فى بعض الألفاظ من الموبقات.

والذى ذكرناه من الخصائل هو من أوسط الأقوال وأعدلها، وهو ما اتفقوا عليه وكثرت الأخبار فيه، فهذه الكبائر الموبقات التى من اجتنبها كفّرت عنه السيآت وثبّتت له النوافل من الفرائض الخمس التى هى أبنية الإسلام، وذلك أنْ دعائم الإسلام وهذه الكبائر قرينان يعتلجان، ويتقاومان فى العظم والمعنى بالتضاد، فالكبائر كبرت فكفّر اجتنابها ما دونها من الصغائر. والفرائض الخمس التى هى أبنية الإسلام إذا تُممت كفّرت مابعدها من السيئات وثبّتت للعبد نوافله وبدّلت سيآته حسنات. قال الله تعالى «**إنْ تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيآتكم**» ، وقال من بعد الكبائر «**إلاّ من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدّل الله سيآتهم حسنات**» . وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم «الصلوات الخمس كفّارات لما بينهن ما اجتنُبت الكبائر» ، فالفرائض الأربع التى هى أبنية الإسلام منوطة بالصلوات الخمس لا تصح إلاّ بها، كالشىء الواحد بمنزلة الأربع، فالصلوات مرتبطة بالشهادتين، إنْ تَركَ خصلة منها كان كتَرْكِ الخمس ، لأنها أسّ الإسلام وأبنية الإيمان . واجتناب الكبائر منوط بالشهادتين لا يقع جميع ذلك إلا بهما، فإذا انتُهكت الكبائر أحبطت الأعمال الفرائض الخمس، وهو الذى حذّر الله تعالى المؤمنين عنه قال «**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم**» . ومنه قوله تعالى «**بَلَى مَن كسب سيئة وأحاطت به خطيئته**» ، قيل هى الكبائر أحاطت بجميع حسناته فمحقتها. وعلى الوجه الآخر «**وأحاطت به خطيئته**» هى الشرْك الذى خُتِم له به فلم ينفعه عمل كان قبله، فإنْ قصّر فى الفرائض الخمس التى هى مبانى الإسلام إلا أنه مجتنبٌ الكبائر كُفّرت عنه سيآته كلها، وتُممّت فرائضه بسائر نوافله ، لأنها ثابتة له بعد أنْ يحصل له صحة التوحيد ويسلم من كبائر البدع التى تنقل عن الملة. وهذا ممن استوت حسناته وسيآته فيطول وقوفه للحساب ،ويُجعل من أصحاب الأعراف بين الجنة والنار إلى أنْ يتفضل الله تعالى عليه بفضل رحمته، فإنْ سَمَح له مولاه فعفا عنه سقط عنه هذا كله وأُدخل الجنة فى أصحاب اليمين، فإنْ لم يكن له نوافل مع نقصان فرائضه لم يبق له من أعماله إلاّاجتناب الكبائر، فيوزن ما بقى من عمله

وهو اجتنابه الكبائر بفرائضه النواقص، فإنْ رجح اجتناب الكبائر مثقال ذرة أو فضلت له حسنة واحدة ضاعفها الله تعالى بالمزيد ، وتجاوز عن سيآته فى أصحاب الجنة ، ولم تكن له مقامات المقربين ولا درجات السابقين، وهو ممن قال الله سبحانه وتعالى **«إن اللهَ لا يظلم مثقال ذرة ، وإنْ تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدّنه أجراً عظيما»**، يعنى الجنة، وإنْ خفّ إضاعته الفرائض لسُنّته كان من الموقنين للحساب الطويل واحتاج إلى شفاعة الشافعين، فإنْ كان فرائضه الخمس ناقصة وكان مرتكبا للكبائر فهو من الهالكين لأنه ممن خفّت موازينه من المؤمنين، وهذا من المسرفين هم أصحاب النار، فيدخل النار لنقص إسلامه ولوفور سيآته عليه إذ لم تسحها حسناته، إلاّ أنه لا يكون من المخلّدين لصحة توحيده، وعلى أنه أول من يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان، فهو فى أول طبقة يخرج، هذا إلى زنة شعيرة، إلى ذرة من إيمان، وهؤلاء آخر الطبقات خروجا، إلى أنْ يبدو لبعضهم من الله تعالى مالا يحتبسه ويظهر له غدا ما لا يعلمه ، فيعفى عن البعض ولا يُجعل ممن حقّ عليه الوعيد لما سبق له من الكلمة الحسنى، ويتجاوز عن سيآتهم فى أصحاب الجنة.

وقد جاء فى الخبر إنّ العبد ليوقَف بين يدّى الله عز وجل وله من الحسنات أمثال الجبال ، لو سلمت له لكان من أهل الجنة، فيقوم أصحاب المظالم، فيوجد قد سبّ عِرض هذا، وأكل مال هذا، وضرب هذا، فيُقصّ من حسناته حتى لا تبقى له حسنة، فيقول الملائكة ياربنا قد فنيت حسناته وبقى طالبون كثير، فيقال ألقوا من سيآتهم على سيآته وصكّوا له صَكّا إلى النار. وقد جاء فى العِلم إنّ آخر من يبقى فى جهنم من الموّحدين سبعة آلاف سنة. وروينا عن **أبى سعيد الخدرى** وغيره من الصحابة وفيه شدة ، قال والله لا يخرج عبد من النار بعد أن دخلها حتى يقيم فيها سبعة آلاف سنة ، وهذا والله أعلم آخر من يخرج من النار، لأنهم يخرجون زُمُراً متفاوتون من اليوم والجمعة والشهر والسنة إلى ستة آلاف سنة، فأكثرهم إيمانا أقلّهم مقاما، وأقلّهم مُكثا أولهم خروجا. أما أول زمرة تخرج مَن فى قلبه مثقال من الإيمان ، فهذا أقلهم لبثا وأسرعهم خروجا، إلى شعيرة إلى ذرة ، فهؤلاء أقلهم إيمانا، وأنقصهم توحيدا، وأعظمهم جُرما، وأشدّهم على الله عِتّياً ، وهم أكثرهم مقاما.

ومجمل ماذكرناه أن أكثر ما يوبق الناس من الكبائر المظالم، وأكثر ما يدخلهم النار ذنوب غيرهم إذا طُرِحت عليهم، وكثير يدخلون الجنة بحسنات غيرهم إذا طُرِحت عليهم لأنها

صحيحة ثابته، وقد تبطل حسناتهم لدخول الآفات عليها.

فى الحديث ذنبٌ يُغفَر وذنب لا يُترك، فالذنب الذى يُغفَر ظلمك نفسك، والذنب الذى لا يُترك مظالم العباد، **والتوبة** طريق الكل، والرحمة تسعهم، وباب التوبة مفتوح للكافة إلى طلوع الشمس من مغربها، وكل عبد توبته متقبلة ما لم تبلغ الروح الحلقوم ولم يعاين الملائكة، فإذا بلغت الروح التراقى وعاينت الأملاك غُلق عليه باب التوبة ومات على الإصرار، فإن مات عن غير توبة كان ممن قال الله عز وجل «**وحيل بينهم وبين ما يشتهون**» ، قيل التوبة، ولما قال تعالى «**وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن**» وهو الوقت الذى قال الله عز وجل «**يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين**» ، وهو الذى خوّف منه فى قوله تعالى «**هل ينظرون إلاّ أنْ تأتيهم الملائكة**» ، يعنى عند الموت، وهذا لأهل المعاينة، «**أو يأتى ربك**» يعنى يوم القيامة وهذا لأهل البرزخ، «**يوم يأتى بعضُ آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل**» ، أى من قبل المعاينة ، «**أو كسبت فى إيمانها خيرا**» ، قيل التوبة، وهو الوقت الذى قال الله «**فلما رأوا بأسنا**» يعنى كشْف الغطاء، «**قالوا آمنا بالله وحده وكَفَرنا بما كنا به مشركين، فلم يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا، سنّة الله التى قد خلَت فى عباده**» ، يعنى طريقته وشأنه الذى مضى فى الخلق لا تبديل له، «**ولن تجد لسنّة الله تبديلا**» . وحُكم العباد كلهم فى المعاد إلى الله عز وجل، إنْ عذّبهم فبما اكتسبوا ويعفو عن كثير، وإنْ شاء أنْ يغفر لهم وهو الغفور الرحيم.

وقد يتفاوت الناس فى جميع ماذكرناه من أداء الفرائض، ومن ارتكاب المعاصى والعرف والتخلّق بأخلاق النفس ، من عادات أبناء الدنيا وعُرف معاشرتهم فيما بينهم، فإنّ ذلك حال الغافلين ومقام الجاهلين، غير محمود العاقبة ولا مغبوط الخاتمة. ولا يترك العمل الصالح أيضا خشية دخول الآفة، ولا يدَعه إنْ كان داخلاً فيه، لكن يكون على نيته الأولى من جهة القصد، فإنْ دخلت عليه علّة وضَع عليها دواءها فعمل فى نفيها وإزالتها ، وثبت على حُسن نيته وصالح معاملته. ولا يدع عملا لأجل الخَلق حياءً منهم وكراهة اعتقادهم فضله، لأنّ العمل لأجل الناس شرك، وتركه لأجلهم رياء، وترك العمل لأجل دخول الآفة فيه جهل، وتركه عند دخول العلّة عليه ضعف ووهن. ومَن دخل فى العمل لله تعالى وخرج منه لله تعالى لم يضره ما

كان بين ذلك بعد أن ينفيه ولا يساكنه، وقد يضره ما يكون بعد ذلك مثل إنْ كان سراً فأظهره بعد زمان فصار علانية، فنُقِل من ديوان السرّ إلى ديوان العلانية. ومثل أنْ يتظاهر به ويفتخر ويدلّ به ويتكبر، فيحبط ذلك عمله لأنه قد أفسده ، والله لا يصلح عمل المفسدين. ومن دخل في العمل لله تعالى ودخل عليه في وسط العمل علّة فخرج من العمل بها بَطُل عمله. ومن دخل في العمل بآفة وخرج منه بصحة سلِم له عمله وجَبَر بآخره أوّله. وأفضل الأعمال ما دخل في أوّله لله تعالى، وخرج منه بالله تعالى ولمّا تطرّقه فيما بينهما آفة، فيكون الله تعالى هو الأول فالآخر معه وعنده، ثم يُظهره بعد ذلك ولا يتظاهر به. وأفضل النيّات أنْ لا تريد بعملك إلاّ وجه الله تعالى وحده، تعظيماً لحق الربوبية ، وإلزاماً للنفس وصْف العبودية، فإنْ لم يكن هذا المقام عن مشاهدة وجه ذي الجلال والإكرام، فمشاهدة مارغب فيه وشُوِّق إليه من الآخرة عن مقام الرجاء. ولا ينبغي للعبد أنْ يدخل في شيء حتى يعلم علمه فيكون داخلاً في علم يعلم مثله، لأن لله سبحانه وتعالى في كل شيء حكماً، فما علم من ذلك حمد الله تعالى عليه وعمله، وماجهل سأل عنه من هو أعلم به، وما أُشكِل عليه أمسك عنه حتى يستبين له وجهه فيُقدِم عليه أو يتركه. ولكن ماتحرك فيه أو سكن عنه أو توقف عن الإقدام عليه إبتغاء مرضاة الله تعالى تقريباً إليه لأجل الله تعالى، فهذا أعلى النيات وهو غاية الإخلاص.

ومن أراد بأعماله ماعند الله تعالى من ثواب الآخرة، من حظوظ نفسه، ومعاني شهواته ولذته من النعيم في الجنان، واتخاذ الحور الحسان مما وصف الله تعالى وندب، لم يقدح ذلك في إخلاصه، ولم يغير صحة نيتّه من قِبل أنّ اللهّ تعالى مدحه ورغّب فيه ووصفه، إلاّ أن هذا نقصٌ في مقام المحبين ، وعيْبٌ عندهم كعيْب من عَمِل لعاجل حظه من دنياه، وهو شرْك في إخلاص الموّحدين الذين اختُصوا بالعبودية فعُتقوا من أسْر الهوى بالحرية، فلم يسترقهم سوى الوحدانية لِما شهدوا من خالص الربوبية. وإخلاص العبودية للربوبية أشد من إخلاص المعاملة ضرورة، إلاّ أنّ مَن رُزِق المقام منها دخل بحقيقة الإخلاص ضرورةً ، فلا ينقّيه ولا يصفّيه عمل ولا مجاهدة، فكانوا مخلصين وهذا مقام المحبين، وإنما أتعب المريدين بالتنقية والتصفية للمعاملة لما بقي عليهم من الشرْك الخفيّ والشهوة الخفيّة، كما أتعب خُدّام الدنيا بالجمع لها لِما استرقّهم من الهوى، فأمّا الأحرار فهم من خدمة الخلْق بُراء، وهذا يُذهب الإخلاص ويُفسد النية ويُدخل الانتقاص . ومات **حماد بن أبي سليمان** ، وقد كان أحد علماء أهل الكوفة ، فقيل **للثوري** ألا تشهد جنازته، فقال لو كانت لي نيّة لفعلت. ومات **الحسن**

البصرى فلم يحضر ابن سيرين جنازته فسُئل عن ذلك، فقال لم يكن لى نية. وقد كان العلماء إذا سئلوا عن عمل شىء أو سعْىٍ فيه يقولون إنْ رَزَقنا الله نيةً فعلنا ذلك. وقال يحيى بن كثير حُسن النيّة فى العمل أبلغ من العمل. وقال بعض السلف كانوا يستحبون أنْ يكون لهم فى كل شيىء نيّة. وقال الفضيل بن عياض لا تتحدث إلاّ بنيّة. وكان بعضهم يقول الخوف على فساد النية، وتغيّرها أشد من ترك الأعمال. وقال الثورى من دعا رجلا إلى طعامه وليس له نية فى أنْ يأكل ، فإنْ أجابه فأكل فعليه وزران، وإنْ لم يجبه فعليه وزر واحد، فصيّر عليه وزرين مع أكل طعامه بغير نيّة لتعرّضه للمقت وحَمْله أخاه على مايكره، إذ لو علم لما أجابه. فَمْن أفهمه اللّه تعالى إخلاص النيّة وزاده معرفة الإخلاص، أخرجه ذلك إلى الهرب من الناس ليُخلِص له معاملته، لأنه ينظر بعين اليقين. وهذا المعنى هو الذى أخرج طائفة الأبدال إلى الكهوف تخلّياً من أبناء الدنيا لخلاص أعمالهم، فهم وإن فارقوا فضائل الأعمال من صلاة الجماعة وغيرها فقد تقرر عندهم أنّ اجتناب معصية واحدة خير من عمل سبعين طاعة، فلذلك فارقوا فضول النوافل خشية دخول معصية واحدة عليهم.

وقد تختلف النيّات لاختلاف المقاصد، فيصير ما كان سيئاً حسناً بحسن النية، وماكان حسناً سيأً لسوء النية به. وقال الحسن النيّة أبلغ من العمل. وقال يوسف بن أسباط تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد. وحدثونا عن بعض الصوفية ، قال كنت قائما مع أبى عبيد التسترى وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة، فمرّ به بعض إخوانه من الأبدال فسارّه بشىء ، فقال أبو عبيد لا ، فقلت لأبى عبيد ماقال لك، فقال سالنى أن أحج معه فقلت ليس لى فى الحج نية، وقد نويت أنْ أتمّم هذه الأرض العشية ، فأخاف إنْ حججت معه لأجله أتعرض لمقَت اللّه تعالى ، لأنى أُدخِل فى عمل اللّه تعالى شيأً غيره، فيكون هذا عندى أعظم من سبعين حجة.

ومن كان له فى مباح نيّة ولم تكن له نيّة فى فضيلة فالأفضل هو المباح حينئذ. وقد انتقل المعنى فصار المباح هو الفضيلة، وصارت الفضيلة هى النقيصة لعدم النيّة فيها، وهذا لا يعلمه إلاّ العلماء بباطن العلم، وهو من غوامض التصريف، مِثْل أنْ يكون رجل قد ظُلم فله أنْ ينتصر ، وإن عفا كان أفضل ، إلا أنه له نية فى الانتصار وليس له نية فى العفو ، فالانتصار هو الأفضل . ومثل أن تكون له نيّة فى الأكل والشرب والنوم ليتقوّى بها على الطاعة ويريح بها

نفسه لوقت آخر، وليس له فى الصوم ولا فى القيام نيّة، فقد صار الأكل والنوم حينئذ هو الأفضل. وقد كان **أبو الدرداء** يقول إنى لأستجم نفسى ببعض اللهو ليكون ذلك عوناً لى على الحق. وكل عمل مباح للعبد فيه نيّة فهو مأجور عليه، وكل عمل فاضل لا نيّة للعبد فيه فأحسن حاله السلامة منه لا له ولا عليه،وكل عمل مباح أو فضْل ليس للعبد فيه نيّة فهو عقل لا شىء له فيه، وإنْ كان قد خفى عليه الهوى أودقّ عليه لطيف حب الدنيا لجهله بالعلم فهو مأثوم فيه، لتقصيره فى طلب العلم الذى يعرف به الإخلاص، وسكوته على الجهل الذى يدخل منه الانتقاص، ولا عذر له فى ذلك. وقد جاء فى الخبر أنّ اللّه تعالى لا يعذر على الجهل. ولا يحل للجاهل أنْ يسكت علٰى جهله، ولا للعالم أنْ يسكت عن علمه. وقد قال اللّه سبحانه وتعالى **فاسألوا أهل الذكر إنْ كنتم لا تعلمون**.

وقد كان **سهل** رحمه اللّه تعالى سُئل ماعُصى اللّه تعالى بمعصية أعظم من **الجهل**، قال نعم، قيل ما هو ، قال الجهل بالجهل، يعنى أنْ يكون العبد جاهلاً وهو لا يعلم أنه جاهل ، أو يحسب بجهله أنه عالم فيسكت عن جهله ويرضى به ، فلا يتعلم، فيضيع فرض الفرائض وأصل الفرائض كلها وهو طلب العلم. ولعله أن يفتى الجهل أو يتكلم بالشبهات وهو يظن أنه عَلِم، فهذا أعظم من سكوته. وكذلك أيضا ما أطُيع اللّه تعالى بمثل العلم. ومن العلم العلم بالعلم أى شىء هو، وذلك أيضا واجب من حيث كان العلم واجباً ليكون على بصيرة من تعلّم العلم، لأنه قد دخل مذهب المتكلمين وأقوال الغالطين من الصوفية والقُصّاص فى شبهات العلم، فصار زخرفا من القول غروراً، يشبه العلم وليس بعلم، لالتباس المعنى بعضه ببعض، ولإشكال دقائق العلوم وغرائبه وخفاء السنّة من طريقة علماء السلَف، فاختلط لذلك القُصّاص والمتكلمون بالعلماء، فصار معرفة العلم أى شىء هو، والعلم بالعالِم من هو، علماً آخر، وصار العالِم بالعلم ماهو دون الزخرف من القول كأنه عالِم، فكان أيضا العِلم بالمعلم بمنزلة فضْل العلم ووجوب وجوبه، كما كان الجهل بالجهل أعظم من الجهل.وقد كان **سهل** رحمه اللّه تعالى يقول قسوة القلب بالجهل من قسوته بالمعاصى، لأن الجهل ظُلمة لا ينفع البصر فيه شيأ، ونور العلم يهتدى به القاصد وإن لم يمش.

وقد قيل فى تفسير قوله تعالى **وبدا لهم من اللّه مالم يكونوا يحتسبون** ، قال عملوا أعمالا لجهلهم ظنوا أنها حسنات فوجدوها سيآت. وقيل ذنوب غيرهم طُرِحت عليهم فعُذّبوا بها

ولم يكونوا يحتسبون بها فى الدنيا، يعنى هذا مثل ماروى فى الخبر إنّ العبد ليرى من أعماله الحسنات مما يرجو به المنازل فى الجنة، فتلُقىَ عليه سيآت لم يعملها، فترجح بحسناته كلها فيستوجب النار، فيقول يارب هذه سيآت ماعملتها هلكتُ بها، فيقول هذه ذنوب القوم الذين اغتّبتهم وآذيتهم وظلمتهم أُلقيتْ عليك وتخلّصوا منها. وقد روينا فى معناه حديثاً مسندا عن **النبى صلى اللّه عليه وسلم** إنّ العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلُصت له دخل الجنة، ويأتى قد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا، فيُقتص لهذا من حسناته، ولهذا من حسناته، حتى لا تبقى له حسنة، فتقول الملائكة ياربنا قد فنيت حسناته وقد بقى طالبون كثير، فيقول اللّه تعالى ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكّوا له صكاً إلى النار .

وينبغى للعبد إنْ أراد أنْ يعمل عملاً أنْ يثبُت له فيجدّد له نية حسنة، ثم يقف وقفة فيتفقد هل يُدخِل عليه فى ذلك آفة واحدة أو أكثر ، فيُخرِج مادخل عليه من الآفات بمشاهدة اليقين، ثم يعمل ذلك العمل ، للّه وحده لا شريك له فى قصده ووجْده وطلبه وثوابه سواه، ثم يستقيم على ذلك العمل فإنْ دخلت عليه آفة نفاها حتى يكون قائما بشهادته، فهذا هو **الإخلاص**، لأن **المخلص** يحتاج فى إخلاصه إلى شيئين ليس أحدهما أوْلَى به من الآخر: صحة القصد لوجه اللّه تعالى، وطلبه ماعنده من الآخرة. ثم إخراج الآفات والحذر على ذلك العمل من دخولها عليه إلى فراغه منه، فبذلك يتم إخلاصه ويصفو من كدْرة الهوى، ويخلص من الشهوة الخفَيّة فيكون خالصا من الرياء بالإخلاص، صافياً من الشهوة يتفقد دخول الآفة. كما روى فى الخبر: «أخوف ماأخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية» ، قيل حب الدينا، وقيل العمل لأنْ يؤجَر العبد ويُحمد. ثم إذا همّ العبد بعمل وقف قبْله وقفةً فتدبّره وتفكّر كم فيه من نيّة، فربما وجد فى العمل الواحد عشرنيات ، أو خمسا ومابين ذلك، لما يحتمل ذلك العمل من وجوه البرّ ومعانىَ القرُبات المندوب إليها، فيكون له بكل نيّة عمل فيؤجَر على العمل الواحد عشرة أجور، لأنه عشرة أعمال أو خمسة، يكون لكل نية عمل، وبكل عمل أجر، وهو من فضائل الأعمال وتضاعيف الحسنات ولا يعلمه إلاّ العلماء باللّه تعالى وأحكامه، وهو طريق الأبدال من صالحى أهل الأحوال، فبذلك زكت أعمالهم وارتفعت مقاماتهم وكثُرت أجورهم وحسُنت حالاتهم، لا بكثرة الأعمال لكن بتحسينها ووجود النيّات الكثيرة فيها. وقد جاء فى الأثر مَن عَمِلَ عملاً لا يريد به وجه اللّه لم يزل فى مَقت من اللّه حتى يفرغ. وقد قال بعض الأدباء من لم يشكر لك حُسن النية فيه لم يشكر لك حُسن الصنيعة إليه. وأنشدوا فى معناه :

لأشكرنك معروفاً هممت به * إنّ اهتمامك بالمعروف معروف

ولا ألومك إذ لم يُمضه قدَر * فالشيء بالقدَر المكتوب مصروف

ولو لم يكن فى تجديد النية الحسنة وتفقُّد الهمّة العالية إلاّ أنّ صاحبها لا يزال عاملا من عمّال الله تعالى بقلبه وهمّه ، وإنْ لم يساعده القدر على الأفعال بجوارحه ، فيكون أبداً مأجورا . وقال بعضهم إنى لأستعد النيّة فى كل شىء قبل الدخول فيه حتى فى أكلى ونومى ودخولى الخلاء . والنية فى هذا التقوى، ونيّة التطهر من التحلّى لأجل الدين. فكان الناس لشدة تفقُّدهم وحُسن رعايتهم صادقين فى ترك كثير من أعمال البرّ لضعف النية. قال **ابن عيينة** إنما حرموا الوصول لتضييع الأصول. **والنيّة أصل الأصول لأنها فرض الفرائض**. وقال بعضهم إنما أبعد القلب من الله عز وجل مظاهر أعمال الجوارح بغير مواطأة من القلب بصحة القصد، يعنى بذلك نقص الإخلاص بها لأجل الله تبارك وتعالى، فالنِكاح مثلاً من معظم شأن الدين، فنيّته فيه أن لا يتزوج المرأة لجمالها ولا لمالها ولا لحُسنها، بل لدينها وعقلها، وفى الخبر من نكح للّه عز وجل وأنكح للهّ تعالى استحق ولاية اللهّ تعالى.

وأفضل الأعمال مادخل فيه للّه عز وجل، وخرج منه للّه ولم يعتوره بعد ذلك علّة. وأعلى مِن هذا مَن دخل فى الأعمال بالله عزّ وجل، وثبت فيها مع الله، وخرج منها بالله تعالى ، وهذا مقام الموّحدين من الموقنين والعارفين. فأصحّ الأعمال وأخلصها ماكان للّه تبارك تعالى ، هو الأول فى أولها، ومع العامل فى أوسطها، والله تعالى هو الآخرة عند آخرها. ثم لا يظهرها بعد ذلك ولا يتظاهر بها، ولا يطالع عوضا عنها من الكبير الأكبر ، بل ينساها ويشتغل بذكر مولاه عنها. والقعود فى المساجد مثلاً من أفضل شأن الدين وفضائل أعمال المتقين ، فليكن له فيه عشرنيّات، منها زيارة مولاه عز وجل فى بيته، كما رُوى مَن قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى، وحقّ على المزور إكرام زائره . ومنها انتظار الصلاة بعد الصلاة كما روى فى معنى قوله تعالى "**ورابطوا**" وهى المرابطة، ومنها كفّ سمعه وبصره وترهّبه كما رُوى: رهبانية أمتى القعود فى المساجد. ومنها العكوف وحقيقته عكوف الهمّ على القلب، وعكوف السرّ بالتألّه إلى الله عز وجل. ومنها ذكر الله تعالى واستماع ذِكْره والتذكير به، كما روى مَن عدا إلى المسجد يذكُر الله تعالى ويُذكّر به كان كالمجاهد فى سبيل الله، ومثل ذلك إذا جلس ليعلّم علما أو يتعلمه كان أيضا كالمجاهد، أو جلس لاستفادة أخ فى الله عز وجل، أو لتنزّل رحمةِ الله، أو

لترك الذنوب للخشية والحياء. كما روينا فى حديث **الحسن بن علىّ** عليهما السلام: مَن أدمن الاختلاف إلى المساجد رزقه الله تعالى إحدى سبع خصال: أخاً مستفاداً فى الله تعالى، أو رحمةً مستنزلة، أو علماً مستظرفاً، أو كلمة تدلُّه على هدى، أو تصرفه عن ردًى، أو ترك الذنوب خشيةً أو حياءً منه. فإخلاص النية هو بخروج أضدادها من القلب، وعن القصد والهمّة، وإنْ كثر أعداده، لتنفرد النية بقصدها ، ويخلص العمل بانفراد النيّة لوجه الواحد الفرد المقصود بها. ويروىَ عن بعضهم قال غزوت فى البحر فعرض بعضنا مخلاة، فقلت اشتريها وانتفع بها فى غزاتى، فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها، فاشتريتها، فرأيت تلك الليلة فى النوم كأن شخصين نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه اكتب الغُزاة، فأملَى عليه: اكتُب خرج فلان متنزها، وفلان مرائيا، وفلان تاجرا، وفلان فى سبيل الله، ثم نظر إلىّ فقال اكتب خرج فلان تاجرا، فقلت الله الله فىّ ، والله ماخرجت أتّجر، ولا معى تجارة أتّجر فيها، ماخرجت إلا للغزو، فقال لى يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها، فبكيت وقلت لا تكتبونى تاجرا، فنظر إلى صاحبه وقال ماترى، فقال اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى فى طريقه مخلاة ليربح فيها، حتى يحكم الله عز وجل فيه مايرى.

ومن المناقص المُشْبِهة للفضائل، المُلتبِسة على الأفاضل، ترك العبد حاله فى مقامه طلباً للفضيلة، ليزداد بها قُربا إلى الله عز وجل، فينقلب عليه فيهلك، فالعالِم عند العلماء مَن عَلِمَ خيّر الخيْرين فسبق إليه قبل فوته، وعلم شرّ الخيريْن فأعرض عنه لئلا يشغله عن الأخير منها، وعلم أيضا خير الشرّين ففعله إذا اضطر إليه وابتُلى به، وعلم شرّ الشرّين فأمعن فى الهرب منه واحتجب بحجابين عنه. وهذا من دقائق العلوم.

وقد تلتبس النية بالأمنيّة فتخفى، والهمّة بالوسوسة فتشتبه. **والنية** ماكان يراد به وجه الله عز وجل ويطلب به ماعنده، **والأمنية** ماتعلّق بالخَلْقْ وطلب منه عاجل الحظ من الملْك الفانى. وقد تلتبس الإرادة بالمحبة والحاجة بالشهوة ، **فالإرادة** أن يريد وقوع الأمر، أو يريد أيضا وجود ضده. **والمحبة** ماقهر العقل وغلب الوجْد وحلّ فى مجامع القلب وكرهّ وجود غيره ولم يُرد فقده، **والحاجة** ما اضطررت إليه ولم يكن منه بد، أو لا يُستَغنَى عنه بغيره، **والشهوة** مزيد لذة. وقد يختلط الذكر بالقلب بالفكر فى معانى القُرب، **فالذكر** ما كشف الغى وأذْكَر الشكر، **والفكر** ماصوّر الأمر وأظهر الخبر. وقد يلتبس الرجاء بالمحبة والهوى بالنية، **فالرجاء** ما

طمعَت فيه بسبب ما، **والمحبة** ماتطمّعت نوقه ووجدته بغير تسبب تستخرجه. وقد يلتبس **ذُلّ القلب** بضعفه وموته للطمع فى الخلق **بذُلّ النفس** لمشاهدة عز الخالق سبحانه وتعالى. وقد يتداخل **ذل الطمع** لدناءة الهمّة والنفس **بذل العقل** للاعتراف بالحق وخضوع العلم له. وقد يلتبس **ذل النفس** لغلبة الهوى وقهره للعقل **بذل القلب** لسرعة الانقياد للعالَم. وقد يختلط **عزة القلب** بمُقلّبه بدوام النظر إليه **وعزة العقل** بعلمه الذى كبر عنده. وقد تلتبس **عزة النفس** بوصفها المتسلّط **بعزة الإيمان** المعزّز بغيبة اليقين. فهذه فروق ظاهرة للعارفين وخروق متسعة تُرهب الغافلين. وقد تلتبس **العبادة بالعادة**، مثل أن يكون للعبد نيّة فى علم أو عمل أو صدقة أو نفقة، ثم تعزب نيته فيبقى على عادته وحاله الذى قد عُرف به لا يحب أن يخرج من عُرف الناس، فيتعمّل لاستقامة الحال على التكلّف بتلك الأعمال، فتذهب النيّة وتبقى العادة فيخرج بذلك من إرادة الآخرة والسعى لها، ويدخل فى إرادة الدنيا بالشهوات على جريان العادة بها. وقد يشهد شهادة الدنيا من طلب الرياسة لوجود الهوى بطرقات الآخرة فى معنى العلوم والأعمال، مما أريد به تأديب النفس ويُعلَم به الزهد فى الدنيا. فهذه **طرقات الآخرة**، وماكان على ضده فهو طرقات الدنيا إذ هو ضدها. وقالوا كان الناس إذا علموا عملوا، وإذا عملوا شُغلوا، وإذا شُغلوا هربوا. وقالوا تفقّه ثم اعتزل. وقد يلتبس إظهار الأعمال وكشف ما كُتِم من الأحوال لأجل التأديب به والاتباع عليه، أو لإظهار قُدرة الله عز وجل وآياته لمزيد السامع من المعرفة به، بفعل مثل ذلك للتزين والفخر أو للمدح به وطلب الذِكْر.

ويحتاج التارك للنهى أو المكروه، فرضاً أو ورعاً، إلى نيّة حسنة، أن يتركه لله عز وجل **طلباً لمأمنه** أو رغبة فيما عنده، لا لوجود الخلْق ولا ليربحَ به حاله، أو يقيم به عند العبيد جاهه، لأن ترك المعصية من أفضل الأعمال فيحتاج إلى أحسن النيات، إذ عليها من الله تعالى أجزل المثوبات، لبلوى النفس بها واضطراب الوصف إليها. وقال بعضهم من أحب أن يَعرِف ورَعه غيرُ الله تعالى فليس من الله فى شىء. وروى عن **زكريا** عليه السلام أن قوما دخلوا عليه وكان يعمل فى حائط القوم بالطين، وكان صانعا يأكل من كدّ يديْه، فقدّموا إليه عندهم رغيفين، وجعل يأكل ولم يدْعُهم حتى فرغ، فسألوه عن ذلك لعلمهم بزهده وكرمه، فقال إنى أعمل لقوم بأجرة وقرّبوا إلىّ هذين الرغيفين لأتقوّى بهما على عملهم، فلو أكلتم معى لم يكفكم ولم يكفنى وضعفتُ عن عملهم. فهذا ممن ترك فضلا لفرض، وممن كانت له نية فى الترك كما تكون له فى الفعل. وقال بعضهم دخلت على **سفيان بن أبى عاصم** وهو يأكل فما كلّمنى

حتى لعق أصابعه، ثم قال لولا أنى أخذته بدين لأحببتُ أن تاكل منه. وقد روينا فى الخبر أنّ أعجميا مرّ بنفرٍ قعود يتكلمون بكلام فيه استهزاء ولهو، فظن أنهم يدعون الله عز وجل فقال مثل مايقولون بحُسن نيته، قال ففغر الله لهم بحسن نيته. وقال **الحسن** من علامة المسلم أن لا يُبدِره لسانه ولا يسبقه بصره ولا تقصر به نيتّه، يعنى لا يضعف ولا تقعد به عن المسارعة إلى القُربات. وقال المؤمن تبلغ نيته وتضعف قوته، والمنافق تضعف نيته وتبلغ قوته.

وقال **النبى صلى الله عليه وسلم** "لكل حق حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يُحب أن يُحمد على شيء من عمل الله عز وجل". وقال الحواريون **لعيسى بن مريم** عليه الصلاة والسلام ياروح الله ما الإخلاص لله عز وجل، قال الذى يعمل العمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد من الناس، قالوا فمن الناصح لله عز وجل، قال الذى يبدأ بحق الله تعالى قبل حق الناس، وإذا عُرِض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة بدأ بأمر الله تعالى قبل أمرالدنيا.

كما روى أنّ عابداً من بنى إسرائيل عبد الله تعالى أربعين سنة فكانت الملائكة ترفع عمله فى السماء فلا يُقبَل، فقالت ربنا وعزتك مارفعنا إليك إلاّ حقاً، فقال عز وجل صدقتم ملائكتى ولكنه يحُب أن يَعرف مكانه... فلذلك قال بعض السلف من نجا من الكِبْر والرياء وحب الشهرة فقد سلِم. وقال **الثورى** ما عالجت شيأ أشد علىّ من نيتى، لأنها تفلت علّى، يعنى تشرد أوتضعف فتحتاج إلى مداواة لها .كما قال **المنصور** المداومة على العمل حتى يخلص أشد من العمل. وقال **الثورى** ما أعتدُّ بما ظهرمن عملى. وقال **علّى** رضى الله تعالى عنه كونوا بقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل، فإنه لا يقل عملٌ مع تقوى، وكيف يقل عمل يُتقبّل. وقال بعضهم من استوحش من الوحدة وأنس بالجماعة لم يسلم من الرياء. وقال **مالك بن دينار** الخوف على العمل أن يُتقبّل أشد من العمل. وقال **ابن عجلان** العمل لا يصلح إلا بثلاث: التقوى لله عز وجل، والنية الحسنة، والإصابة. وقد فسّر **الفضيل** قوله تعالى «**ليبلوكم أيكم أحسن عملا**»، قال أخلصه وأصوبه، قيل وماذاك، قال العمل إذا كان خالصا ولم يكن صواباً لم يُقبَل. وقيل **للعمل أربع خصال** لا يتم إلاّ بهن: معرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، والإخلاص به، والعمل على السنّة، فأى عمل كان قبل هذه الأربع لا ينفع.

ومن الناس من يكون حَسَن الأداء لفرضه، كثير الندم والإشفاق من معاصيه، فيكون هذا

أحسن حالا. ومنهم من يكون سيء الأداء قليل الحزن والندم على ذنوبه، فيكون هذا أسوأ حالاً. وليس الناس في ذلك على قياس واحد، والله يغفر لمن يشاء الذنب العظيم، ويعذّب من يشاء على الذنب الصغير لما سبق لهما في علمه، ولما نفذ لهما من مشيئته وحكمه. وقد يشترك الاثنان في معصية ويتفاوتان في حكم المشيئة، ويتوب الله على من أحب، ويتقبل ممن يحب، ويردّ ما يشاء ممن يشاء. والسابقة غير المعصية، **السابقة** في المشيئة، يغفر لمن سبقت له الحُسنى جميع معاصيه السوأى، ويعذب من حقّت عليه كلمة العذاب ويحبط أعماله الحسنى. والخلق مردودون إلى السابقة، ومحكوم عليهم بعلم الله تعالى فيهم. وفي الخبر هلك المصرّون قُدُماً إلى النار، والإصرار يكون بمعنى أن يعتقد بقلبه متى قدر على الذنب فعَله، أو لا يعقد الندم عليه، ولا التوبة منه. وأكبر الإصرار السعي في طلب الأوزار. وفي الخبر سبق المفرّدُون المستهترون بذكر الله تعالى، (أي الملازمون للذكر) وضع الذكر أوزارهم فوردوا القيامة خِفافاً، فهؤلاء الذين سبقت لهم منا الحُسنَى من المقرّبين. أخبر **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنّ لهم أوزاراً وضعتها الأذكار. وقال تعالى «**والسابقون السابقون، أولئك المقربون**»، وهذا ما علمناه من أدلة العلوم وتأويل التنزيل، وعفو الله تعالى وإرادته من وراء ذلك كله وعلمه القديم، ولله عاقبة الأمور

مسئلة محاسبة الكفار

فأما محاسبة الكفّار فهذه مسئلة اختلف الناس فيها، فمنهم من ذهب إلى أنهم يُحاسَبون، ومنهم من أنكر حسابهم. وقد اختلفت الآثار في ذلك، فقد جاء في بعضها ما يدل على حسابهم وبه تعلّق من قال به. وجاء في كثير منها ما يدل على أنهم لا يحاسبون وبه احتج من أنكر حسابهم. وإنما يرجَع عند الاختلاف إلى كتاب الله تعالى، ففيه الشفاء، وبه الغِنَى، فيُفصّل ما أجمل القائلون، ونعدّل في القول الشديد فيما تأوّله المتأولون، فنقول والله أعلم: إنّ الله سبحانه ذكر في كتابه آيتين تدل على مسئلة الكفار عن الشرك الذي أدخلوا في التوحيد، وعن أجابة المرسلين وتكذيبهم - قال الله تعالى **ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون**، ثم قال في الآية الأخرى **ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين** - فنقول أنهم على هذا يُسئلون عن **التوحيد** فقط، وعن تكذيب المرسلين حسب هاتين الآيتين. وقال في آيتين أخرتين - **ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون**، وقال في الأخرى **فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنسٌ ولاجان**، ثم قال **يُعرَف المجرمون بسيماهم فيؤخَذ بالنواصي والأقدام** - فهذا نصٌ في ترك المسألة على الذنوب والأعمال، فنقول بهاتين

الآيتين، إنهم لا يُسئَلون عن الأعمال وإنما يحاسب على العمل من كانت بينه وبينه معاملة، ومن ثبتت له حسنات يقع بها ترجيح وموازنة. وقد روينا عن **أنس بن مالك** رضى الله تعالى عنه فى قوله تعالى **وقفوهم إنهم مسؤلون**، قال عن قول لا إله إلاّ الله. وقد رويناه مرفوعا إلى **النبّى صلّى الله عليه وسلم**، فهذا على معنى ماذكرناه أنهم يُسئلون عن التوحيد، فالناس من أهل **الجنة والنار** يُحشَرون يوم القيامة على **ست** طبقات: طائفة تدخل الجنة بغير حساب وهم السابقون المقرّبون، وطائفة تدخل الجنة بعد الحساب اليسير وهم خصوص المؤمنين والصالحين، ومنهم من يدخل بعد الحساب الطويل والمناقشة وهم أصحاب اليمين وعموم المؤمنين. وكذلك أهل النار **ثلاث** طبقات: طائفة تدخل النار بغير سؤال ولاحساب خُلِقوا للنار، وطائفة تدخل النار بعد الحساب الطويل والمناقشة وهم أهل الكبائر والمنافقون، وطائفة بسؤالٍ وتوقيفٍ من غير محاسبة على الأعمال، وهم أمم **الأنبياء المرسَل إليهم المرسلون**، لقوله تعالى **فلنسألن الذين أرسِل إليهم** الآية. وقد روينا فى الخبر المشهور: من نوقش الحساب عُذّب، فقيل يا رسول الله، أليس الله تعالى يقول **فسوف يُحاسب حسابا يسيرا**، فقال ذلك العرف ومن نوقش الحساب عُذّب. وقد كان إمامنا **سهل بن عبد الله** يقول: يسئل الكفّار عن التوحيد ولا يسئلون عن السنّة، ويسئل المبتدعون عن السنة، ويسئل المسلمون عن الأعمال.

فامّا قوله تعالى "**إنّ إلينا إيابهم ثم إنّ علينا حسابهم**" ففيها وجهان: أحد الوجهين أنْ يكون هذا كلاماً منفصلا عما قبله يرُاد به المسلمون، لأنه ذكَر خبر الكفّار فختمه بالعذاب، فقال فى أول الكلام **إلاّ من تولّى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر**، هذا آخر خبرهم. ثم استانف مخبراً عن غيرهم فقال «**إنّ إلينا إيابهم ثم إنّ علينا حسابهم**». والوجه الآخر أن يكون قوله تعالى «**ثم إنّ علينا حسابهم**»، أى جزاؤهم، فالحساب أيمّا ذُكِر للكفار يكون بمعنى المجازاة على أعمالهم السيئة. وكذلك قوله تعالى «**ووجد الله عنده فوفّاه حسابه**» يعنى جزاءه، إلاّ أنّ **القرّاء** وغيره من أهل اللسان خالفونا فى هذا فاعتبروه بمابعده فجعلوه دليلا على المحاسبة، قالوا احتمل أنْ يكون قوله "**فوفّاه حسابه**" أنْ يكون جزاءه كما قلنا، واحتمل أن يريد محاسبته فلّما قيل **والله سريع الحساب** كشف التنزيل التاويل بذلك أنّ حسابه يعنى محاسبته. وكذلك قال **الزجّاج** فى تاويل ماذكرناه آنفا من قوله «**ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون**»، فقال معناه لا يُسئلون من علِم ذلك وسبقه عليهم، أى قد فرغ اللهّ عز وجل من ذلك فأحكمه بما سبق من علمه. وواطاه **مقاتل بن سليمان** على هذا التاويل، فقال

معنى ذلك ولا يسأل هؤلاء المجرمون عن ذنوب السالفين، فجعل الهاء والميم على من تقدّم من قارون وأصحابه والقرون السالفة، لأن ذكرهم كان سياق هذا الخطاب فى قوله تعالى **أو لم يعلم أنّ الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا**، ثم قال **ولا يُسأل عن ذنوبهم**، يعنى هؤلاء المجرمون، يعنى مشركى هذه الأمة. وقال أيضا هو غيره أنّ الكفار سألوا فقالوا تُرى ماذا فعل الله تعالى بالقرون الأولى الذين يقص علينا نبأهم، قال فنزلت هذه الآية فهى بمنزلة قول فرعون، **قال فما بال القرون الأولى**، فقال موسى عليه السلام **علمُها عند ربى**، إلاّ أنّ الله عز وجل قد قال فى ذِكْر الحساب بمعنى الجزاء **عطاءً حسابا**، يعنى مجازةً، وقيل كفايةً، بمعنى كفاهم وأحسبهم ذلك، كما قال تعالى **حسْبهم جهنم**، أى كافيهم ذلك .

الفصل السابع والثلاثون

فى الإخلاص

شرح النيات والأمر بتحسينها فى تصريف الأحوال، والتحذير من دخول الآفات عليها فى الأفعال

قال الله الكبير المتعال "**وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين**"، وقال **رسول الله صلى الله عليه وسلم**: ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم: إخلاص العمل لله تعالى، وقال إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى... وقد روينا فى الحديث من طريق أهل البيت عليهم السلام: لا يقبل الله تعالى قولاً إلا بعمل، ولا قولاً وعملاً إلاّ بنيّة. وقال **عمر بن الخطاب** رضى الله تعالى عنه أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرّم الله تعالى، وصِدْق النيّة فيما عند الله عزوجل. فينبغى أن يكون للعبد فى كل شىء نيّة حتى فى مطعمه ومشربه وملبسه ونومه ونكاحه، فإن ذلك كله من أعماله التى يُسأل عنها، فإنْ كانت لله تعالى وفيه، كانت فى ميزان حسناته، وإنْ كانت فى سبيل الهوى ولغير المولى كانت فى ميزان سيآته إذ لكل عبد ما نوى، وإنْ كان ذلك غفلةً وسهواً من غير نية ولا عقْد طوية ولا حسبة، لم يكن له فى ذلك شىء، ولم يجد عمله فى الآخرة شيأ، وكان فيه لا له ولا عليه، وكان ذلك فى الدنيا على مثال الأنعام التى تتصرف عن غير عقول ولا تكليف ولكن بإلهام وتوقيف، وأخاف أنْ يدخل فى وصف من قال اللهّ تعالى «**أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطا**»، أى غفلةً وسهواً، وقيل تفريطاً وتضييعاً، وقيل مقدماً إلى الهلاك. فالنية